وما سواها (124)

سلـــــوك الإعتقـــاد والإنتحـــــار!!

http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa124-200616.pdf

د. صـــــــادق السامرائـــــي
أمريكـــا - العـــراق
sadiqalsamarrai@gmail.com

هذا الإقتراب مبني على الملاحظة السريرية البحتة والتجربة العملية المتواصلة , ولا علاقة له بأي رأي وتوجه وتصور ونظرية ودراسة , فهو تدوين ملاحظاتي إستقرائي صرف ينشد الحقيقة المعرفية البحتة!!
الإنتحار عمل يقوم به الإنسان للإجهاز على نفسه وذلك بقتلها بما يتيسر له من الوسائل المتنوعة للقتل.

والإعتقاد هو الإيمان بفكرة ما قد تكون دينية أو دنيوية.

والسلوكان متزامنان ومتوافقان ويشتركان بتأريخ طويل وراسخ في الحياة البشرية ومنذ الأزل.

ولا يمكن الجزم أيهما بدأ أولا , الإنتحار أم الإعتقاد , لكن من المرجح أن الإعتقاد كان أولا والإنتحار والقتل ثانيا.

فالإعتقاد من العقيدة وهي الفكرة التي تتسيّد على الدماغ البشري وتتملكه وتسخّر صاحبه لغاياتها وتطلعاتها , والعقيدة قد تكون سياسية دينية حزبية أخلاقية إجتماعية وطنية أو غيرها مما يعتقد به البشر.

ويبدو أن البشر المنتحر يبحث في ما يعتقده عمّا يسوّغ سلوكه الإنتحاري وإقدامه على العمل المدمّر للذات وما حولها ويتصل بها.

فأول جريمة – كما ورد في الكتب المقدسة – والتي يمكن قراءتها بمنظارين إنتحاري وإجرامي , فالصراع الذي كان بينهما له علاقة وثيقة بالإعتقاد , وأن الإقدام على القتل كان لأسباب إعتقادية , بمعنى أن طاقة الإعتقاد أسهمت في تحقيق فعلة القتل أو الإنتحار.

وتأريخ الإنتحار يصعب تحديد بداياته , لكنه سلوك تشترك فيه جميع المخلوقات وبدرجات متفاوتة , وقد يكون جماعيا أو فرديا , ولا تخلو مملكة خلقية منه , والبشر ينتحر وتتنوع الأسباب والدوافع والغايات , وعبر العصور والمجتمعات والثقافات والفلسفات , ووفقا للإحصاءات فأن في كل دقيقة ينتحر ثلاثة أشخاص , ويتجاوز عدد المنتحرين في الدنيا كل عام المليون , وما تمكنت العلاجات الدوائية والترويحية من التقليل من نسبة الإنتحار.

فالإنتحار فكرة ما أن تتملك الرأس البشري حتى تسعى بصاحبه لتنفيذها , ومهما حاول هو ومَن حوله , فأن هذه الفكرة ستجد ما يبرر تنفيذها وإنجاز مهمتها أو تحقيق هدفها.

وهي كأي فكرة تتمكن من صناعة دائرة عُصبيية دوّارة جذابة ومستحضرة للأفكار التي تعززها وتقويها وتمدها بطاقات المرام المنشود , وأعظم الأفكار التي تساهم في تطويرها ودفعها الفتاك إلى الأمام هي الأفكار الإعتقادية , لأنها تحرر الشخص المُستعبد أو المملوك بالفكرة من المسؤولية , بل وتمنحه آليات التسامي والتصورات المحفزة للإنجاز والتنفيذ المُحكم السديد , وتوهمه بأن ما يقوم به هو الأرقى والأصدق والأصلح لذاته وموضوعه.

لا يمكن الجزم أيهما بدأ أولا , الإنتحار أم الإعتقاد , لكن من المرجح أن الإعتقاد كان أولا والإنتحار والقتل ثانيا

الإعتقاد من العقيدة وهي الفكرة التي تتسيّد على الدماغ البشري وتتملكه وتسخّر صاحبه لغاياتها وتطلعاتها

العقيدة قد تكون سياسية دينية حزبية أخلاقية إجتماعية وطنية أو غيرها مما يعتقد به البشر.

الإنتحار يصعب تحديد بداياته , لكنه سلوك تشترك فيه جميع المخلوقات وبدرجات متفاوتة , وقد يكون جماعيا أو فرديا , ولا تخلو مملكة خلقية منه

وفقا للإحصاءات فأن في كل دقيقة ينتحر ثلاثة أشخاص , ويتجاوز عدد المنتحرين في

والمعتقد الديني من أخطر ما يؤازر السلوك الإنتحاري , فحالما تتخذ الفكرة منحى ديني فأنها تتأسد وتتوحش وتقدم على سلوك لا يخطر على بال الآخرين , لأن الإنتحار سيتحول إلى مهمة ربانية وتنفيذ إعتقادي وترجمة لرسالة ذات آفاق مطلقة ومبشرة بغايات كبيرة وحياة جميلة واعدة , خصوصا عندما يمتلك الشخص تجارب موتية سابقة , إستشعر فيها لذة ومتعة الغياب والتسرمد الموتي الجميل!!

فالأشخاص من ذوي التجارب الموتية السابقة هم الأخطر والأفظع والأوحش في التنفيذ الإنتحاري , وعندما يعدهم إعتقادهم بالحياة الأخرى الفاضلة الرائعة , فأنهم سيقفزون إلى نهايتهم بهمة عالية وتصميم مطلق وشديد.

في بداية عملي بالطب النفسي , علمني أحد المرضى أن نسبة كبيرة من حوادث السيارات هي أفعال إنتحارية , فالمنتحر ينقض بسيارته على مركبة أخرى ليقضي على نفسه وغيره , إنتقاما لنفسه من الحياة.

والكثيرون منهم علموني أن المحاولات الإنتحارية السابقة ما هي إلا خطوات تجريبية تمهد لتنفيذ مشروع الإنتحار , إذ يبدو أن المحاولات الإنتحارية المتكررة علامة جازمة بأن الإنتحار التام سيتحقق حتما!!

ويميل البعض إلى شنق أنفسهم , لما في ذلك من تجربة ذات تأثيرات لذائذية متراكمة عندهم , وهو من أخطر السلوكيات , فالمحاولة الفاشلة تمنح الشخص تجربة موتية فريدة ذات لذة ومتعة غريبة , فيقدم عليها تكرارا حتى يقضي على نفسه قصدا أو خطأً , كأن يكون سلوكه إدمانيا للوصول إلى لذة الإحساس بالإختناق , ولا يُعرف سبب ذلك , فربما يساهم الإختناق بإطلاق الدوبامين في الدماغ وتحفيز مراكز اللذة والمتعة فيه.

ومعظم الذين مرّوا بمحاولات إنتخارية يجدون فيها تجارب ذات أحاسيس ممتعة , فتجربة ما قبل الموت أو على وشك الموت , توصف بأنها خلابة وتستوجب التكرار.

وذات يوم أستدعيت لتقييم حالة شاب يبتلع شفرات حلاقة وبكميات كبيرة , فيُأتى به للطوارئ وتُجرى له العملية , وما أن يتشافى حتى يكرر ذات السلوك , وكان ديدنه التمتع بلذة التمويت على طاولة الجراحة.

وفي مؤتمر الجمعية الطبية النفسية الأمريكية في أتلانتا لعام 2016 , كانت أحد المحاضرات البارزة لجراح تكلم عن الموت وتجربة الإنسان الموتية , والتي نجهلها أو نكاد نبتعد عنها وربما نخشاها.

وتلعب الكآبة دورا مهما في السلوكين الإنتحاري والإعتقادي , ولا يُعرف هل هي السبب أو النتيجة , أي هل أن الفكرة الإنتحارية تستدعي الشعور الكئيب أم العكس , لكن الواضح أن الفكرة هي الأساس ولهذا فأن العلاجات الذهنية أثبتت قدرتها على مداواة الكآبة , وعليه فأن من المحتمل جدا أن تكون الفكرة هي التي تخلق البيئة النفسية المؤهلة لها والمعززة لمنطلقاتها وأهدافها المساعدة لها على إنجاز ما فيها من التطلعات والغايات المطمورة.

فالشعور الكئيب يستحضر ويجذب الأفكار المتوائمة مع الفكرة الأساسية وهي إنجاز الموت , بإرادة الذات البشرية المُستعبَدة بالفكرة الإنتحارية الفاعلة فيها والمقيّدة لرؤيتها وتصوراتها وما يبدر عنها.

وكل فكرة تترسخ في الأدمغة فأنها تتمكن من بناء الحواجز والمتاريس وحفر الخنادق حولها , والتسلح بما تستطيعه من وسائل الدفاع والمقاومة والهجوم.

أي أنها ترتقي إلى مستوى الإعتقاد , فالذي ينتحر تكون عقيدته إنتحارية , وحالما تهيمن وتتسلط عليه , فأن معتقداته الأخرى سترضخ لها وتتقيّد بأوامرها , وسينبثق منها ما يؤازر الفكرة الإنتحارية

الدنيا كل عام المليون , وما تمكنت العلاجات الدوائية والترويحية من التقليل من نسبة الإنتحار

المعتقد الديني من أخطر ما يؤازر السلوك الإنتحاري , فحالما تتخذ الفكرة منحى ديني فأنها تتأسد وتتوحش وتقدم على سلوك لا يخطر على بال الآخرين , لأن الإنتحار سيتحول إلى مهمة ربانية وتنفيذ إعتقادي وترجمة لرسالة ذات آفاق مطلقة ومبشرة بغايات كبيرة وحياة جميلة واعدة

أن المحاولات الإنتحارية السابقة ما هي إلا خطوات تجريبية تمهد لتنفيذ مشروع الإنتحار , إذ يبدو أن المحاولات الإنتحارية المتكررة علامة جازمة بأن الإنتحار التام سيتحقق حتما!!

تلعب الكآبة دورا مهما في السلوكين الإنتحاري والإعتقادي , ولا يُعرف هل هي السبب أو النتيجة , أي هل أن الفكرة الإنتحارية تستدعي الشعور الكئيب أم العكس

الواضح أن الفكرة هي الأساس ولهذا فأن العلاجات الذهنية أثبتت قدرتها على مداواة الكآبة

الذي ينتحر تكون عقيدته إنتحارية , وحالما تهيمن وتتسلط عليه , فأن معتقداته الأخرى سترضخ لها

المستبدة الفاعلة في الكيان الذاتي.

فالفكرة الإنتحارية تتنامى وتتقوى وتُخضِع الأفكار الأخرى والمعتقدات الكامنة في البشر لمشيئتها وتوظفها لصالحها , فالفكرة الإنتحارية أولا ومن ثم الإعتقاد , الذي يتم تسويغه لتنفيذ الفكرة وتجسيدها بقوة مروعة وتوثب خطير وفتاك.

وهذه الثنائية الإعتقادية الإندماجية تصنع من الشخص قنبلة ذات طاقات إنفجارية عاتية , أي أن البشر قد يتحوّل إلى قنبلة أو طوربيد محشو بالمتفجرات , أو أن يكون مسلحا بالأسلحة الفتاكة المتوفرة في الأسواق والتي يستخدمها للإنقضاض على نفسه والذين من حوله.

ولهذا فأن حالات القتل الجماعي المتكررة إنما في جوهرها عمليات إنتحارية إعتقادية فتاكة , يقوم بها الشخص وهو يعرف بأنه سيُقتل , أي أنه يقدم على الإنتحار بالقيام بمجزرة , يبررها وفقا لما إستحضره مما يعتقده , وقد إندمجت في وعيه العقيدة الإنتحارية مع أية عقيدة أخرى يعتقدها , وخصوصا إذا كانت دينية أو فئوية أو تحزبية وغيرها من العقائد الفاعلة في دنيا البشر.

فالقتل الجماعي الذي يقوم به الأفراد إنما هو إنفجار معتقدي إندماجي , كالذي يحصل في حالات الإندماج النووي!!

فلا توجد عملية إنتحارية فردية أو جماعية إلا وكانت حصيلة تزاوج أو إندماج ما بين العقيدة الإنتحارية والإعتقادية لدى الفرد أو الجماعة , أما القول بإنفصال الحالتين فهذا إقتراب ناقص ومحاولة للتحريف ومجانبة الحقيقة السلوكية المريرة.

فالبشر لكي يقدم على أعمال شنيعة لابد له أن يبرّرها بمنطلقات إعتقادية , أي أنه يؤوّل ما يعتقده ويؤمن به لصالح فكرته الإنتحارية , وأي شخص تدور في رأسه فكرة الإنتحار فأن تنفيذها سيكون أكيدا عندما يقرنها بما يعتقده , خصوصا إذا وجد لها تسويغا دينيا وتفويضا شرعيا , وأجواءً ترعاها وتشجعها وتحث عليها , وتغري أصحابها بالمحفزات والحياة الأفضل والأجمل , فتتحول الحياة إلى موت والموت إلى حياة.

ومشكلة البشرية المعاصرة أنها تفصل ما بين السلوك الإنتحاري والإعتقادي , فالأخير ليس إنتحاريا , لكن الإنتحاري المُعتقِد هو الذي يبحث في معتقده عمّا يعزز سلوك الإنتحار ويمنحه الصلاحية والشرعية الكفيلة بتنفيذه.

وهذا الإقتراب التفريقي الذي يفصل بين الموضوعين, يساهم بتعزيز التداعيات الإنتحارية المتواصلة في المجتمعات كافة , خصوصا وأن وسائل الإعلام تشارك في تطوير السلوك وتغذيته بأسباب الشهرة والذيوع السريع , فلكي تشتهر عليك القيام بعمل إنتحاري يشد إنتباه وإهتمام الناس , وذلك بإرتكاب جرائم إنتحارية فظيعة ومروّعة تهز أعماق البشر , وعندها ترفع وسام الشهرة وتدخل التأريخ.

ومن المعلوم أن البشرية يمكنها أن تعتقل نفسها في زنزانة فكرة ما لعقود وربما لقرون , وهذا ما يبدو في واقع الحال الذي لا يجوز فيه النظر إلا بمنظار واحد متسيّد على وعي البشرية ورؤيتها , وتفسيرها للأحداث والتطورات الدامية في الأرض.

وأنها تستخدم شماعة الدين لتوهم نفسها بأنها تدري وتعلم , وما هي إلا تسير في طريق منحرف يتواصل فيه سفك الدماء وإشاعة الخراب والدمار في العالم بأسره.

فالدنيا تنتج أفظع أدوات القتل , وتعرضها للبيع في الأسواق , وتحسب أن الذي يشتريها سيضعها في كابينة ويتأملها , أو يطيل النظر إليها وحسب , وتنسى أن من حقائق السلوك البشري أن البشر ما أن يمتلك وسيلة أو أداة قوة إلا وإستعملها , أو وجد ما يبرر إستخدامها , وهذا ينطبق على ما تملكه الدنيا من أسلحة نووية وأكثر في مخازنها المتأهبة والتي ستنطلق بلمسة زر لا غير.

وتتقيّد بأوامرها

الفكرة الإنتحارية تتنامى وتتقوى وتُخضِع الأفكار الأخرى والمعتقدات الكامنة في البشر لمشيئتها وتوظفها لصالحها

لا توجد عملية إنتحارية فردية أو جماعية إلا وكانت حصيلة تزاوج أو إندماج ما بين العقيدة الإنتحارية والإعتقادية لدى الفرد أو الجماعة

البشر لكي يقدم على أعمال شنيعة لابد له أن يبرّرها بمنطلقات إعتقادية , أي أنه يؤوّل ما يعتقده ويؤمن به لصالح فكرته الإنتحارية

أي شخص تدور في رأسه فكرة الإنتحار فأن تنفيذها سيكون أكيدا عندما يقرنها بما يعتقده , خصوصا إذا وجد لها تسويغا دينيا وتفويضا شرعيا , وأجواءً ترعاها وتشجعها وتحث عليها

مشكلة البشرية المعاصرة أنها تفصل ما بين السلوك الإنتحاري والإعتقادي , فالأخير ليس إنتحاريا

أي أن البشرية ربما لديها نوازع إنتحارية جماعية , وتمتلك العقائد الكفيلة بتبرير التعبير عنها , وهذا ما يدور في أروقة صناعات القرارت المصيرية , وقد عبّرت عنها في القرن العشرين بحربين عالميتين بشعتين , وما تبعهما من حروب وفظاعات وأهوال.

وأن ما يجري في العالم من أحداث فردية للقتل الجماعي والإنتحاري ما هي إلا مقدمات لسقوط البشرية جمعاء في هاوية الوعيد والسقر!!

ومَن يتصور أن القرن الحادي والعشرين سينأى عمّا حصل في القرون التي سبقته , لهو في وهم كبير , بل أن هذا القرن سيختصر سلوك جميع القرون التي سبقته , لما يكنزه من قدرات فتك وخراب لا مثيل لها , وما عرفتها الأرض من قبل ومن بعد!!

ولا بد للبشرية أن تواجه حقيقة وواقع السلوك الإنتحاري الذي يتوطن البشر من جميع الأعراق والديانات والمجتمعات , وهي تعرف كم من البشر ينتحر كل عام , وفي زمن التواصل الإجتماعي ووسائل الإتصال السريع , فأن ذوي الأفكار الإنتحارية سيتجمعون وسيتآزرون وسيعززون سلوكهم , ويمنحونه معاني أخرى وتفاعلات ذات طاقات تدميرية هائلة.

وما تعيشه البشرية اليوم لوسائل الإتصال والتواصل دور كبير فيه , ولابد من وعي هذا الدور والتأثير الخطير الذي يتحدى الحياة المعاصرة.

فالمنتحرون يتواصلون ويؤلفون مجتمعات وجماعات وفئات ذات عناوين وغايات إنتحارية مستفيدة مما تنتجه مصانع الأسلحة الفتاكة في العالم المتقدم.

فإذا كانت الإحصاءات تشير إلى أن أكثر من مليون شخص في العالم ينتحرون كل عام , فعلينا أن نتصور كم منهم يمكنه أن يتواصل ويتفاعل ويحقق ترجمة مروعة لسلوكه , ولهذا فأن الجماعات المعادية للحياة المعاصرة , ربما تضم نسبة كبيرة من الإنتحاريين المزودين بطاقة تدمير الذات , ولكي يتخذ هذا التدمير معاني أخرى فأنه يُقرن بغايات إعتقادية تزيده قوة وتصميما وتدميرا.

وستبقى البشرية في مأزق وعماء ما دامت تصر على أن الإنتحار نتيجة وليس سببا , أو عرضا لحالة أخرى , بينما هم إضطراب سلوكي بحت , شأنه شأن إضطرابات الشخصية وغيرها من الإضطرابات السلوكية العاصفة بالبشر منذ الأزل.

فالبشرية تبرر وترسّخ جهلها ووهمها بالمعرفة بتحليلات وتفسيرات إرضائية لما يعتمل في نفوس الناظرين والمتوهمين بالإمساك بحقيقة الحال!!

والخلاصة أن الإنتحار فكرة أساسية أولية , ما أن تعصف في الرأس البشري وتتنامى طاقتها الإمتلاكية لوعيه وكيانه , فأنها تسخّر ما عنده من الأفكار لصالحها وتستحلبها ما يعززها ويؤكد مشاريعها الساعية للقضاء على الشخص.

فالإنتحار جرثومة تصيب الأدمغة وتهدف لقتل أصحابها , أو تكون ذات قدرات إتساعية إتلافية تدعو ضحيتها لقتل نفسه وما حوله من الناس , لتعزيز شراستها وشراهتها التدميرية.

ومن المروع أن البشرية تحتاج لعقود وربما لقرون لتعيد النظر برواسخ ما فيها من أوهام الدراية والمعرفة , وهذا ينطبق على هذه الحالة , التي ربما ستقرأ فيها المقالة بعين ذات حَوَلْ!!

فهل سنعيد النظر بفهمنا لسلوك الإنتحار قبل فوات الآوان؟!!

لكن الإنتحاري المُعتقِد هو الذي يبحث في معتقده عمّا يعزز سلوك الإنتحار ويمنحه الصلاحية والشرعية الكفيلة بتنفيذه

أنها تستخدم شماعة الدين لتوهم نفسها بأنها تدري وتعلم , وما هي إلا تسير في طريق منحرف يتواصل فيه سفك الدماء وإشاعة الخراب والدمار في العالم بأسره

ستبقى البشرية في مأزق وعماء ما دامت تصر على أن الإنتحار نتيجة وليس سببا , أو عرضا لحالة أخرى , بينما هم إضطراب سلوكي بحت , شأنه شأن إضطرابات الشخصية وغيرها من الإضطرابات السلوكية العاصفة بالبشر منذ الأزل

الإنتحار جرثومة تصيب الأدمغة وتهدف لقتل أصحابها , أو تكون ذات قدرات إتساعية إتلافية تدعو ضحيتها لقتل نفسه وما حوله من الناس , لتعزيز شراستها وشراهتها التدميرية